مأتم فى قلبى !! (*)

منذ صدر هذا الأسبوع ، أعطيت ظهرى للاحتفالات الجارية بالعام الميلادى الجديد ، وأقمت فى قلبى مأتمًا للإخوة والأخوات المسيحيين ، الذين حصدت أيادى الغدر والخسة والوضاعة أرواحهم ، وأراقت دماءهم الطاهرة وهم خارجون من دار العبادة ، بعد أن أدّوا صلواتهم ، وتبادلوا التهانى وتهيأوا لاستقبال العام الجديد ، فتلقفهم انفجار ضرير غادر ، كفيف خسيس ، لا يرعى الله ولا يلتزم بدين ، ولا يحترم عهدًا ولا شرعًا ، ولا يقيم وزنًا للأرواح التى خلقها الله ، ومصيرها إلى بارئها ، فاستحل حصدها حصدًا ليحول احتفال المصريين جميعا بعام جديد ، إلى مأتم أصاب مصر كلها فى الصميم .. وأحال الضحكات والبسمات إلى بكاء ودموع ونحيب .. قتل غدرًا بغير حق أرواحًا بريئة ، وَيتَّم أطفالًا ، اختطف منهم ذويهم ، وثكل أمهاتٍ اختطف فلذات أكبادهن ، ورمّل زوجات وأزواجًا أحال حيواتهم إلى هجير مقفر حزين !!

لا أحسب بيتًا مصريا ، مسيحيًّا أو مسلمًا ، إلاَّ وفجع بهذه المأساة التى لم يراع مدبروها دينًا ولا ملة ولا عهدًا ولا ضميرًا ولا خلقًا .. ولا أقاموا وزنًا لتوابع هذه الكارثة على مصر بأسرها .. شعبها وأمنها وحاضرها ومستقبلها .. ولا عناهم الخراب الذى أصاب البيوت ، ولا

(*) الأهرام ٦/ ١/ ٢٠١١.

الحزن الذى سكن القلوب ، وقصفوا بهذا الغدر الخسيس أعواد الحياة ، وأعمتهم أغراض حقيرة كفيفة ، عادوا بها الإنسانية كلها ، وخلعوا الولاء لله ﷻ !!

أشنع ما فى القتل العشوائى الوضيع ، أنه لا يفرق ولا يميز ، ويزهق أرواحًا بريئة لا ذنب لها ولا جريرة ، ويرمّل زوجات ويثكل أمهات ويتّم أطفالا ، ويجرى بغير منطق ولا حجة ، ولا يدفعه إلاّ رغبات عبثية ضريرة تلتحف بذرائع مغلوطة لضرب أمان ومصير الوطن وإشعال النيران فى ربوعه !!

أكتب هذه السطور مساء الأحد ، ولست أدرى ماذا سوف تتدافع إليه ردود الأفعال ، ولعلّى أتوقع ردود أفعال ربما أخطأت اختيار الطريق فى اتجاه بوصلتها ، ولكن هذا فى نظرى مفهوم ، ويجب أن تتسع له الحكمة والصدور ، وأن تدرك أن وقع الفجيعة أمرّ وأضنى وأوجع من أن تحتمله النفوس المكلومة ، وأشد من أن تتسع الرؤية الصافية لردود أفعاله . أخشى ما أخشاه أن يُقابل رد الفعل برد فعل ، وأن تدخل مصر فى سلسلة من ردود أفعال تأخذنا بعيدًا إلى حيث يريد المتآمرون بالخارج أم بالداخل على مصر ، الراغبون فى إشعال الحرائق والفتن فى ربوعها وبين شعبها !!

ظنى أن الموضوع صار يجاوز الحديث عن الوحدة الوطنية ، فما نواجهه بات تدميرًا صارخًا ومباشرًا يصيب مصر بأسرها ، مسيحييها ومسلميها ، وينسف قيمها ومثلها وأمنها ونظامها ومصالحها ومصيرها ، ويهدد كيان الوطن تهديدًا خطيرًا لا يخدم إلاّ أعداءه ، فى الخارج كانوا

أو فى الداخل .. الفاعلون المدبرون لا يمكن أن يكونوا منتمين إلى أى دين ، دينهم هو الشيطان إن جاز التعبير ، ومن المحال أن يقدم على هذا العبث الشنيع إلاَّ عدو طُوى على كراهة لمصر وشعبها ، وعلى حقد دفين ناشب فى مخزون نفسه .. يروم به القضاء على كل شىء طيب فى أرض الكنانة ، ويبتغى ضربها فى صميم أمنها وسلامها ، ويفسد إفسادًا مخططا متعمدًا ما بين بنيها .. ليزرع بينهم العداء والبغضاء بدل المحبة والوئام .. لم تعد تمر فترة ، إلاّ ويوجع قلب مصر بحادثٍ مروع يضربها فى السويداء ، ولا يمكن أن يصدر إلاَّ عن كُفرٍ بواح ، وعن ضمير ميت وحقد دفين وتخطيط خبيث .. وضع نصب عينيه هدفًا يريد به تمزيق مصر وإشعال الحرائق فى ربوعها وخلخلة وزعزعة أمانها !!

هذه الفواجع العدوانية ، واستسهال سفك الدماء ، ضَرْبٌ من الجاهلية الحمقاء مهما كانت أهدافها ومآربها .. من المحال أن يكون فى قلوب الفاعلين مصريين كانوا أم متآمرين من الخارج ذرة من الانتماء إلى الله ﷻ ، والولاء له .. ومن المحال أيضًا أن يدين هؤلاء الفاعلون المدبرون بأى دين .. فالدين اعتزاز بالانتماء إلى الله ، والإيمان برسله ورسالاته ، والاحترام العميق لخلقه .. المتدين السوى لديه شعور عميق بالنبل واحترام الإنسانية ، وهو أبعد ما يكون عن الغرور والصلف والغطرسة والاستعلاء على الخلق وتجاهل الكون وازدراء الوجود والإنسانية .. الدين الحق أى دين هو فى لبه وجوهره رفض تام لهوان الروح والعقل ، ومقاومة كاملة شاملة للتعفن الداخلى المدفوع بالحقد والبغض والعماء .. الدين هو ولاء لروح الله واحترام لخلقه بإخلاص وشجاعة وإصرار على هذا الولاء وشعور دائم بهذا الولاء .

ليس من الولاء لله ﷻ ، أو الانتماء للأديان ، حصد الأرواح التى خلقها الله وسفك دمائها عدوانا وإثما وافتئاتًا .. إن من قتل نفسًا بغير حق ، كأنما قتل الناس جميعا .. إن الأديان كافة تقدس الروح تقديسها لخالقها وبارئها .. وفى الإسلام روح الإنسان ، مهما كانت ديانته أو عرقه ، هى روح الناس جميعا .. هى الحياة كلها .. وإزهاقها هو اعتداء غاشم ضرير على الحياة الإنسانية التى أوجدها الله ولا موجد ولا منهى لها سواه .. قتل النفس التى حرم الله قتلها من السبع الموبقات ، وفى القرآن المجيد أن جزاء القاتل جهنم خالدًا فيها وعليه لعنة الله مع ما أعد له من عذابٍ عظيم .. وفى حديث رسول القرآن ﷺ : «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل نفسٍ بغير حق**» .

هذا الإجرام الذى يجترئ على سفك الدماء وحصد الأرواح ، ولا يرعوى بدين أو خلق أو ضمير ، يجب مواجهته بالحزم وملاحقته وحصاره ووأده وضربه فى كل فج ! هذا الواجب واجب على الكافة فى أرض مصر .. حاكمين ومحكومين .. هو أوسع فى مداه ولوازمه من أن ننفض أيدينا منه اتكالا على الحكومة .. هو واجب المسلمين كافة قبل أن يكون واجب المسيحيين ..إن من حق القبطى على كل مسلم فى مصر أن يكون له درعًا يقيه من أى جموح أو انفلات مريض أو مجنون ، أو تآمر مدبر مدفوع .. إن ما تجرى به وعليه هذه الفواجع المدبرة الخسيسة ، يضرب فى قلب الجماعة الوطنية ويبتغى إشعال حريق لا ينطفئ بين أبناء الوطن يأتى على الأخضر واليابس !

*****